بل جئت ... لأكمِّل

«لاتظنوا أني جئت لأنقض
الناموس أو الأنبياء ؛ ما جئت
لأنقض ، بل لأكمل . فإني الحق أقول
لكم : إلى أن تزول السماء والأرض
لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة
من الناموس حتى يكون الكل »

(مت ٥ : ١٧ - ١٨) .

«ليست التصوّرات الدينية تصوّرات محضة مطلقة ، ولو غلب عليها الطابع الفلسفي - كما هي الحال فيما يمسّ العقائد ، فالناس يُحيونها بالقدر الذي يجعلونها فيه موضوعاً لتفكيرهم ، وهي تثير في أعمق النفوس مجموعة كبيرة من العواطف والمخاوف وحماس التقوى ، ومعنى ذلك أنها **تدفع إلى العمل أو تنهى عنه** ، فإنّها تنتهي بأن تصير معاملات إجبارية أو نواهي . وقد اعتد العلماء إطلاق اسم (التابو) على الأمور المحرّمة Taboo - وهذا المصطلح مأخوذ من اللغة البولينيزية »[1] .

بهذا أوضح الأستاذ باستيد Roger Bastide وجهة نظر علم الاجتماع في اقتران العقيدة بالشريعة ، إذ يقترن الرمز المعبود بالنهي Totem, Taboo منذ ديانات الجماعات البدائية .

فلا يكفي الإنسان أن تتحدّد نظرته العامة إلى الكون والحياة ، إذ هو لا يستغني عن خطوط أخرى تنير له الطريق في الدروب والشعاب ...

ذلك أن من شأن مسالك (الشريعة) العملية أن تشرح وتُوضِّح ، وتظاهر وتُؤازر أصول (العقيدة) الفكرية ، فيكون المجال أوسع لتفّهم الإيمان والانتفاع به انتفاعاً واقعيًّا في دنيا الناس حين يصاغ في (أحكام دين) ، ولا يكون مجرّد (نظرية فلسفية) آثارها متوقّفة على مدى الإشعاع الروحي الذي ترسله في أرجاء النفس الإنسانية !

وقد تحدّدت مسالك الشريعة الإلهية فيما صدر عن الرسل والأنبياء من أقوالهم وأفعالهم وفيما بلّغو عن ربهم ..

---

١ - روجيه باستيد Roger Bastide : مبادئ علم الاجتماع الديني (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص ٩٧.

والقرآن يشير إلى الشرائع السابقة دون تفصيل لأحكامها ، وهو في بعضها لا يورد إلا أبرز هذه الأحكام : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف : ٨٠ ، ٨١] ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

ونحن لا ندري إن كانت هذه الأحكام هي كلّ ما ورد في رسالات أولئك الرسل من تشريع - على اعتبار أن احتياجات المجتمعات وتطور الشرائع اقتضى الاكتفاء بها ، أو أنّ هناك ما لم يجد القرآن مدعاة للإشارة إليه ... على أنّ القرآن صريح في أن شريعة موسى بالذات كانت مفصلة : ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٤] ، ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف : ١٤٥] .

وتلك هي الشريعة التي وجدها المسيح بين يديه : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

ومعنى الآية القرآنية الأخيرة أنّ المسيح سيتناول شريعة موسى بالتعديل ، فيُحِلُّ ما كان محرّما ...

والناظر فيما ورد في القرآن عن المحرّمات على بني إسرائيل ، يجد أنّ منها ما حُرِّمَ كعقوبة إلهية على التمرّد والعصيان ، دون أسباب موضوعية ثابتة : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء : ١٦٠ ، ١٦١] ، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٦]!!

بل إنّ من هذه المحرمات ما حرّمه إسرائيل على نفسه وفاء بالنذر وشكراً على النعمة وقربى إلى الله : ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران : ٩٠] .

ويروي إنجيل لوقا : «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا ، ومن ذلك الوقت يُبَشِّرُ بملكوت الله ، وكلّ واحد يغتصب نفسه إليه . ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس » (لو ١٦ : ١٦-١٧) !

«لاتظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ... ما جئت لأنقض ، بل لأكمل! فإنّي الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ، لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلّ . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا - يُدعي أصغر الناس في ملكوت السموات . و أما من عمل وعلّم - فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات ، فإنّي أقول لكم : إن لم يرد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات »!

إعمالٌ لشريعة الناموس ، واحترام لها ... مع تحذير من شكلية الكتبة والفريسيين ، الذين يزعمون أنهم قوّامون بشريعة التوراة حُفّاظ عليها !!

«قد سمعتم أنّه قيل للقدماء : لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم .. وأما أنا فأقول لكم : إنّ كلّ من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ! ومن قال لأخيه رقًّا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب

نار جهنّم ! فإن قدّمت قربانك إلى المذبح ، وهناك تذكرّت أنّ لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدّام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك - وحينئذ تعال وقدّم قربانك ! كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق ، لئلا يُسلمك الخصم إلى القاضي ، ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتُلقى إلى السجن - الحق أقول لك : لاتخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير !!

«قد سمعتم أنّه قيل للقدماء : لا تزن ! وأما أنا فأقول لكم : إنّ كلّ من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه !! فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقعلها وألقها عنك ، لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسمك كله في جنهم ! ...

«وقيل من طلّق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إنَّ من طلق امرأته - إلا لعلّة الزنا - يجعلها تزني ، ومن يتزوّج مُطَلَّقَةً فإنّه يزني !

«أيضاً سمعتم أنّه قيل للقدماء : لا تحنث ، بل أوف للربّ أقسامك . وأما أنا فأقول لكم : لاتحلفوا البتّة - لا بالسماء لأنها كرسيّ الله ، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ! ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم : نعم نعم ، لا لا - وما زاد على ذلك فهو من الشرير !!

«سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسنّ بسنّ ، وأما أنا فأقول لكم : لاتقاوموا الشرّ ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . ومن سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك ، فلا ترّده » (مت ٥ : ١٧-٤٢)!

إنّها شريعة الإيثار ...

تتجاوز النصوص على ما وراء النصوص ، وتسدّ كلّ ثغرة يتملّص منها المتحايلون ! إنها تسير مع دعوة الحب والسماحة حتى (تقوم المحبة بين الناس مقام القانون) !! إنها تجعل الناس في غنى عن تطبيق الناموس بحروفه في المحاكم ، لأنهم تجاوزوا ما يطالبهم به الناموس إلى ما يطمئن إليه الضمير : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر : ٣٢] .

«وفي اعتقادنا أنّ (شخصية) المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير ... هي شريعة تهدم كلَّ عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفاً منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان إلى الضمائر والقلوب ، لأنّ الإنسان يحاسب نفسه إذا أحبَّ حساباً لا تدركه الشرائع ولا يطَّلع عليه القضاء ! وقد كان الـمُصْطَدَمَ بين الشريعتين حيث يُتوقّع وكما يُتوقّع .. ومن ثم نقول إنّ الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وأن الـمُصْطَدَمَ بين الشريعتين لا يختلقه المختلق إن شاء» [1] !!!

«البرُّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس».

«البرُّ ما سكنت إليه النفس واطمأنّ إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمأن إليه القلب ... وإن أفتاك الـمُفتُون !! » [2].

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح - ص١٣٣ ، ١٣٨.

٢ - الحديث الأول رواه البخاري في الأدب ومسلم والترمذي وصححه السيوطي ، والثاني رواه أحمد وحسنه السيوطي.

والعبرة بالنيات في شرائع العبادات : «ومتى صلّيت فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يُحبّون أن يُصلّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ! الحق أقول لكم : إنهم قد استوفوا أجرهم !! وأما أنت فمتى صليّت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك ، وصلّ إلى أبيك الذي في الخفاء ! فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية ... وحينما تُصلّون لا تكرّروا الكلام باطلاً كالأمم ، فإنّهم يظنون أنّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم ! فلا تتشبّهوا بهم ، لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه ...

ومتى صُمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فإنهم يُغَيِّرُون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين ! الحق أقول لكم : إنّهم قد استوفوا أجرهم !! وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكيلا تظهر للناس صائما - بل لأبيك الذي في الخفاء ! فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية » (مت ٦ : ٥-٨، ١٦-١٨)!!

إنّ المسيح يصادر كلما يعتزّ به (الطقوسيون الحرفيون) - من مظاهر وشكول!!

«حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين : لماذا نصوم نحن الفريسيون كثيراً ، وأما تلاميذك فلا يصومون ؟ فقال لهم يسوع : هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم ؟ ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم - فحينئذ يصومون ! ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق ، لأنّ الملء . يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ !! » (مت ٩ : ١٤-١٦ ، مر ٢ : ١٨-٢١ ، لو ٥ : ٣٣-٣٦) .

وباب الله مفتوح للدعاء .. بلا مراسم أو تعقيدات :

«اسألوا تُعْطَوْا ... اطلبوا تجدوا ... اقرعوا يُفتح لكم . لأن كلّ من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يُفتح له . أم أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً ؟ وإن سأله سمكة يعطيه حيّة ؟ ... فإن كنتم وأنتم وأشرارا تعرفون أن تُعطوا أولادكم عطايا جيّدة ، فكم بالحرّي أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (مت ٧ : ٧-١١ ، لو ١١ : ٩-١٣) !!

والمسيح يوصي رسله ليكونوا نوراً للرسالة حيث يسيرون ...

«أنتم ملح الأرض ، ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملّح ؟ لا يصلح بعد لشيء إلا أن يطرح خارجاً ويداس من الناس . أنتم نور العالم ! لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت . فليضيء نوركم هكذا قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجّدوا أباكم الذي في السموات » (مت ٥ : ١٣-١٦) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وقد واصل التلاميذ التبشير بالمسيحية ، وكثيراً ما التقوا باليهود أثناء تجوالهم ، فكان عليهم أن يوضّحُوا موقفهم من الناموس :

«شدّة وضيق على كلّ إنسان يفعل الشر : اليهودي أولاً ثم اليوناني .. ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح : اليهودي أولاً ثم اليوناني ، لأن ليس عند الله محاباة ...

لأنّ كلّ من أخطأ بدون الناموس فبدون الناموس يهلك ، وكل من أخطأ في الناموس فبالناموس يُدان ! لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله ، بل الذين يعملون بالناموس هم يُبَرَّرُون ! . **لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس ، فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس - هم ناموس لأنفسهم !!**

هو ذا أنت تُسمّى يهوديًّا وتتّكل على الناموس وتفتخر بالله ، وتعرف مشيئته وتميّز الأمور المتخالفة متعلّماً من الناموس ، وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين في الظلمة ومُهذّب للأغبياء ومُعلّم للأطفال ، ولك صورة العلم والحق في الناموس !

فأنت إذن الذي تُعلّم غيرك - ألست تعلّم نفسك ؟ الذي تكرز : أن لا يُسرق - أتسرق ؟ الذي تقول : ألا يُزنى - أتزني ؟ الذي تستكره الأوثان - أتسرق الهياكل ؟ الذي تفتخر بالناموس - أبتعدّي الناموس تهين الله ؟ لأنّ اسم الله يُجدّف عليه بسببكم بين الأمم - كما هو مكتوب !

إذن ما هو فضل اليهودي ؟؟ ... فلأنّهم استُؤمنوا على أقوال الله . فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء ؟ ... فماذا إذن : أنحن أفضل ؟ كلا البتّة ، لا نناقد شكونا أنّ اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطيّة .. ونحن نعلم أنّ كل ما يقوله الناموس فهو يكلّم به الذين في الناموس لكي يستدّ كل فم ، ويصير كلّ العالم تحت قصاص من الله . لأنّه بأعمال الناموس كل ذي جسد لايتبرّر أمامه ، لأنّ بالناموس معرفة الخطيئة .

وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس ، مشهوداً له من الناموس والأنبياء .... برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح - إلى كلّ وعلى كلّ الذين يؤمنون .. متبرّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح .. **فأين الافتخار ؟ قد انتفى . بأي ناموس؟ أبناموس الأعمال ؟ كلا - بل بناموس الإيمان . إذن نحسب أنّ الإنسان يتبرّر بالإيمان بدون أعمال الناموس ؟ أم الله لليهود فقط ؟ أليس للأمم أيضاً ؟ بلى للأمم أيضاً** ...

يا إخوتي أنتم أيضاً قد مُتّم للناموس بجسد المسيح ، لكي تصيروا لآخر - الذي قد أقيم من الأموات لنثمر لله . لأنّه لما كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نثمر للموت ، وأما الآن فقد تحرّرنا من الناموس - إذ مات الذي كنا ممسكين فيه حتى نعبد بجدّة الروح لا بعتق الحرف . فماذا نقول: هل الناموس خطيّة ؟ حاشا ! بل لم أعرف الخطيّة إلا بالناموس ، فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته .. ولكن الخطيّة - وهي متخذّة فرصة بالوصية ـ

أنشأت فيَّ كل شهوة ، لأن بدون الناموس الخطية ميّتة .. فإننا نعلم أنّ الناموس روحي ، وأما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية .. فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ، ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطيّة الكائن في أعضائي . ويحيى أنا الإنسان الشقي !! من ينقذني من جسد هذا الموت ؟ أشكر الله يسوع المسيح ربنا - إذن أنا نفسي بذهني أخدم ناموس الله ، ولكن بالجسد ناموس الخطيّة »!!

ونتيجة هذا التصوير أنّ : «**الخليقة نفسها ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله** »، وأن «**لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن ربّاً واحداً للجميع غنيًّا لجميع الذين يدعون به**» (رومية ٢ :٩-١٤ ، ١٧-٢٤، ٣ : ١، ٩، ١٩-٢٩ ، ٧ : ٤-٨ ، ١٤ ، ٢٢-٢٥ ، ٨ : ٢١ ، ١٠ : ١٢) .

ويكاد أن يتخصَّص بولس في تكرار القول بأنّ رسالة المسيح قد غطّت على الناموس ، و يكاد أن يصرّح بأنّ الناموس قد استنفد أغراضه وصار غير ذي موضوع ...

«قلت لبطرس قدّام الجميع : إن كنت وأنت يهودي تعيش أمميًّا لا يهوديًّا ، فلماذا تُلزم الأمم أن يتهوّدوا ؟ نحن بالطبيعة يهود ، ولسنا من الأمم خطاة ، إذ نعلم أنّ الإنسان لا يتبرَّر بأعمال الناموس - **بل بإيمان يسوع المسيح آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح ، لنتبرّر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس . لأنّه بأعمال الناموس لا يتبرَّر** جسد ما ، فإن كنا ونحن طالبون أن نتبرَّر في المسيح ، نوجد نحن أنفسنا أيضاً خطاة - أفالمسيح خادم للخطية ؟ حاشا ! **فإني إن كنت أبني أيضاً هذا الذي هدمته فإني أظهر متعدّياً ، لأني مت بالناموس للناموس لأحيا الله ! مع المسيح صُلبت فأحيا ، لا أنا - بل المسيح يحيا فيّ** . فما أحياه الآن في الجسد ، فإنما أحياه في الإيمان : إيمان ابن الله الذي أحبّني وأسلم نفسه لأجلي . لست أبطل نعمة الله ! **لأنه إن كان بالناموس برّ ، فالمسيح إذن مات بلا سبب !!**

جميع الذين هم من أعمال الناموس - هم تحت لعنة ! لأنّه مكتوب : ملعون كلّ من لايثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس لنعمل به . ولكن أن ليس أحد يتبرّر بالناموس عند الله فظاهر ، لأنّ البار بالإيمان يحيا ، ولكن الناموس ليس من الإيمان ، بل الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها . **المسيح افتدانا من لعنة الناموس** .. إذ صار لعنة لأجلنا ! لأنه مكتوب : ملعون كل من عُلِّق على خشبة !! ..

فلماذا الناموس قد زيد بسبب التعدّيات ، إلى أن يأتي النسل الذي قد وُعِد له مرتبا بملائكة في يد وسيط ، وأما الوسيط فلا يكو واحد . ولكنّ الله واحد . فهل الناموس ضد مواعيد الله ؟ حاشا ! لأنه لو أعطي ناموس قادر أن يُحيي ، لكان بالحقيقة البرّ بالناموس . لكن الكتاب أغلق على الكلّ تحت الخطية ، ليعطي الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون ! لكن قبلما جاء الإيمان ، كنا محروسين تحت الناموس مغلقا علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن ! إذن قد **كان الناموس مؤدّبنا إلى المسيح لكي نتبرّر بالإيمان ، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدّب - لأنّكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع .. ليس يهودي ولا يوناني ، وليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وأنثى - لأنّكم جميعاً واحد في المسيح يسوع**»!!!

إنّ بولس يرى في الإيمان المسيحي والمحبة المسيحية ثراء وغناء ..

«وإنما أقول : اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد ، لأنّ الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون مالا تريدون ، ولكن **إذا انقدتم بالروح فلستم تحت الناموس** ! وأعمال الجسد ظاهرة : التي هي زنى ، عهارة ، نجاسة ، دعارة ، عبادة الأوثان ، سحر ، عداوة ، خصام ، غيرة ، سخط ، تحزّب ، شقاق ، بدعة ، حسد ، قتل ، سكر ، بطر - وأمثال هذه ... وأمّا ثمر الروح : فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفّف - ضد أمثال هذه ليس ناموس . ولكنّ الذين هم للمسيح قد صلبوا

الجسد مع الأهواء والشهوات ! إن كنا نعيش بالروح ، فلنسلك أيضاً بحسب الروح !! » (غلاطية : ٢ : ١٤-٢١ ، ٣ : ١٠-١٣ ، ١٩-٢٨ ، ٥ : ١٥-٢٥) .

وفي الرسالة إلى العبرانيين تعبير أقرب إلى التصريح :

«فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال - إذ الشعب أخذ الناموس عليه ، ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هرون ، لأنّه إن تغيّر الكهنوت فبالضرورة يصير تغيّر للناموس أيضاً ... فإنه واضح أنّ ربنا قد طلع من سبط يهوذا الذي لم يتكلم عنه موسى شيئاً من جهة الكهنوت ، وذلك أكثر وضوحاً أيضاً إن كان على شبه ملكي صادق يقوم كاهن آخر .. فإنه **يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها ، إذ الناموس لم يكمِّل شيئاً . ولكن يصير إدخال رجاء أفضل - به نقترب إلى الله**» (عبرانيين ٧ : ١١-٢٠) .

وهذه الرسالة نفسها تناقش مراسم العبادة عند اليهود ، وتقرّر أنها ليست طريقاً للخلاص : «لأنّ الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة - لا نفس صورة الأشياء - لا يقدر أبداً بنفس الذبائح كل سنة التي يقدّمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدّمون . وإلا : أفما زالت تُقدّم ؟ ... لكن فيها كل سنة ذكر خطايا ، **لأنه لايمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا ... نحن مُقَدّسُون بتقديم جسد يوسع المسيح مرة واحد** . وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويُقدّم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتّة أن تنزع الخطيّة . وأما هذا ، فبعد ما قدّم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله ، منتظراً بعد ذلك حتى توضع أعداؤه موطئاً لقدميه ، لأنّه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدّسين ! .. فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع ، طريقاً كرّسه لنا حديثاً حيًّا بالحجاب - أي جسده - وكاهن عظيم على بيت الله ، لنتقدّم بقلب صادق في يقين الإيمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا بماء نقي ، لنتمسّك

بإقرار الرجاء راسخاً لأنّ الذي وعد هو أمين . ولنلاحظ بعضنا بعضاً للتحريض على المحبّة والأعمال الحسنة ، غير تاركين اجتماعنا - كما لقوم عادة - بل واعظين بعضنا بعضاً ، وبالأكثر على قدر ما ترون اليوم يقرب . فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق ، لاتبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة التي تأكل المضادّين » (عبرانيين ١٠ : ١-٥ ، ١٠-١٤ ، ١٩-٢٧) .

إذن فهل يعني إكمال الناموس الذي ذكره المسيح ، تجاوز دائرته كلية إلى دائرة أوسع وأرحب ، وتنتظم الناموس في مجمله وجوهره ، وغايته وقصده ، لكنها تتخلّى عن التفضيلات والجزئيات ؟؟

يعرض لهذه القضية أحد دعاء المجيئين السبتيين Adventist - وهي جماعة مسيحية خاصة - في معرض الحديث عن الأخذ بيوم السبت : «يجب أن يكون مفهوماً أنّ أيّة محاولة لإقامة حدّ فاصل بين كتابات العهدين القديم والجديد لايعود علينا بفائدة أوجدوى سوى أنها تجعل وحدة الكتاب المقدس أمراً يكتنفه الإبهام والغموض ! لأنّ مثل هذه التعبيرات - أي القديم والجديد - إنما هي من وضع الإنسان وتسميته ، ولم يصبح استعمالها مُتداولاً إلا بعد كتابة الأسفار المقدسة بزمن طويل . وبالرغم من ذلك فإنّ هناك اليوم كثيرين ممن يستفاد من أقوالهم : إنّ المسيحي قد أصبح لا شأن له بالعهد القديم ، وأنّه غير ملتزم بأي نص من نصوص العهد القديم - ما لم يرد ذكره صريحاً في العهد الجديد ! صحيح أنه **يوجد في العهد القديم أوامر كثيرة تتعلّق بالتقدمات والذبائح مثلاً وغيرها من الفرائض والطقوس - التي انتهت من تلقاء ذاتها بمجرّد موت المسيح الفدائي** ، كما أوضح لنا ذلك أيضاً كتبة العهد الجديد . ففي مثل هذه الحال لا نكون مقيَّدين بتلك الأوامر المدوّنة في العهد القديم ، لأنها تعتبر منتهية بانتهاء مدّتها . **وينطبق هذا المبدأ عينه على الشرائع والقوانين المتعلّقة بحكومة الأمة الإسرائيلية ، لأنّ كتبة العهد الجديد أوضحوا لنا أنّ اليهود**

كافة أو كجنس قد فقدوا اعتبارهم كشعب الله المختار ، فمن ثمّ تكون قوانينهم وشرائعهم المدنية معدومة الدلالة والأهمية بالنسبة لنا ، أو بعبارة أخرى تصبح غير ذات موضوع - اللهم إلا إذا كانت تنطوي على مبدأ من المبادئ الأدبية الأساسية العامة .

ولكن **ليست هكذا الحال فيما يختص ببعض الأوامر الأدبية العظمى التي أمر بها الله في العهد القديم ، فإنه قد لـخَّـص المبادئ الأدبية العامة وقنّنها في الكلمات العشر** التي نطق بها الله نفسه . وهذا القانون - أو هذه الوصايا العشر - ليست مقصورة على زمن دون زمن ، أو موضوعة لجيل دون آخر ، وإنما هي مبادئ عامة لايمكن أن تُحدّ بحدود جنسية أو فوارق قومية . وهي جزء من التعليم والإرشاد الروحي المعلن من الله في العهد القديم لكلّ الناس في كل زمان وفي كلّ مكان ، فلا يمكن أن يقال عنها إنّها قد فقدت شيئاً من تأثيرها أو قيمتها في العهد الجديد . وحينما كان الرسل يجولون مبشّرين بالكلمة ، كانوا يستعملون العهد القديم طبعاً - لأن العهد الجديد لم يكن قد كُتب بعد . ومن تصريحات بولس في هذا الصدد قوله : كلّ الكتاب هو مُوحًى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذي في البرّ ، لكي يكون إنسان الله كاملاً مُتأهّباً لكل عمل صالح (٢ تيموثاوس : ٣ : ١٦ - ١٧) »[1] .

وقد صوَّرت الأناجيل المسيح زاهداً في القضاء والحكم بين الناس ولو على أساس الناموس :

«وقال له واحد من الجمع : يا معلّم ، قل لأخي أن يقاسمني الميراث ... فقال له : يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً ومقسّماً؟» (لو ١٢ : ١٣-١٤) .

---

١ - فرانسيس دانيكول: إيماني - حججه وأسانيده (ترجمة جرجس سليمان) ص ٥٤ - ٥٦.

«وقدّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أُمسكت في زنا ، ولما أقاموها في الوسط قالوا له : يا معلّم هذه المرأة أمسكت وهي تزني - في ذات الفعل ، وموسى في الناموس أوصانا أنّ مثل هذه تُرجم ، فماذا تقول أنت ؟ - قالوا هذا ليُجرِّبوه ، لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه ! وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بإصبعه على الأرض ، ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : من كان منكم بلا خطيّة فليرمها أوّلاً بحجر !!

ثم انحنى أيضاً إلى أسفل وكان يكتب على الأرض ، وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تُبكّتهم خرجوا واحداً فواحداً - مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين ، وبقى يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط . فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة قال لها : يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك ؟؟ أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد يا سيد ! فقال لها يسوع : ولا أنا أدينك ، اذهبي ولا تخطئي أيضاً ... أنتم حسب الجسد تدينون ، أما أنا فلست أدين أحداً . وإن كنت أنا أدين ، فدينونتي حق لأنّي لست وحدي - بل أنا والآب الذي أرسلني » (يو ٨ : ٢-١١ ، ١٥-١٦) .

كان المفروض - وهذا موقف المسيح - ألا يوجد ما يثير أولي السلطان عليه : سلطان الدين أو سلطان الدنيا ، سلطان الهيكل أو سلطان القيصر ...

فالمسيح - منذ سمع بمقتل يوحنا - باشر رسالته في حذر وحيطة : «فارتدّ أولاً إلى القرى الهادئة وتجنّب الجدل السياسي .. لكنّه أصبح في كل يوم أعظم جرأة في إعلانه إنجيل التوبة والإيمان والنجاة ، حتى ظنّ بعض أتباعه أن يوحنا قام من بين الموتى !! »[1] ... «في ذلك اليوم تقدّم بعض الفريسيين قائلين له : اخرج واذهب من هنا ، لأنّ هيرودوس يريد أن يقتلك ... فقال لهم : امضوا وقولوا لهذا الثعلب ، ها أنا أخرج شياطين وأشفى اليوم وغداً ،

---

١ - ديورانت : قصة الحضارة ج٣ م٣ (قيصر والمسيح) ترجمة بدران ص ٢١٨.

وفي اليوم الثالث أكمّل . بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه ، لأنّه لا يمكن أن يهلك نبيّ خارج أورشليم » (لو ١٣ : ٣١-٣٣) .

ومع هذه الجرأة ضد هيرودوس ، فإنّ إجابته في شأن جزية قيصر - كإجابته في قضية رجم الزانية - هي إجابة من لايريد أن يصطدم بسلطان الولاة أو سلطان الكهنة على حد سواء ! .. لقد أراد خصومه أن (يصطادوه بكلمة) ، وقدّموا الفخّ بأنه : (صادق ، ويعلّم طريق الله بالحق ، ولايبالي بأحد - لأنه لاينظر إلى وجوه الناس) ! .. لكنّ إجابته أخرجته من الحبل الذي قذفون ليطوّق عنقه : «أروني معاملة الجزية .. فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر . فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر ، و ما لله لله » (مت ٢٢ : ١٥-٢٢ ، مر ١٢ : ١٣-١٧ ، لو ٢٠-٢٦).!! ومع ذلك فقد حاولوا استغلال الاتهام السياسي الشائك عند بيلاطس حين أراد إطلاق المسيح في العيد : «ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين : إن أطلقت هذا فلست محبّاً لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر .. قال لهم بيلاطس : أأصلب ملككم؟ أجاب رؤساء الكهنة : ليس لنا ملك إلا قيصر!» (يو ١٩ : ١٢ ، ١٥) .

ويتلّقى رسل المسيح هذا الدرس من سيرته ، فيلزمون الحذر ويوصون بالطاعة أثناء تجوالهم بين ربوع إمبراطورية الرومان . ففي الرسالة إلى أهل رومية :

«لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ! لأنّه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هي مرتّبةٌ من الله - حتى إنّ من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة ، فإنّ الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للشريرة . أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ افعل الصلاح - فيكون لك المدح منه ، لأنه خادم الله للصلاح ! ولكن إن فعلت الشر فخف ، لأنه لا يحمل السيف عبثاً ، إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي فعل الشرّ ! لذلك يلزم أن يخضع له - ليس بسبب الغضب فقط ، بل أيضاً بسبب الضمير ! فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً - إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه ! **فأعطوا الجميع حقوقهم : الجزية لمن له**

الجزية ، الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف ، والإكرام لمن له الإكرام» (رومية ١٣ : ١-٧) .

وفي رسالة بولس إلى تيطس : «ذكّرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ، ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح ، ولا يطعنوا في أحد ، ويكونوا غير مخاصمين حلماء مظهرين كل وداعة لجميع الناس» (تيطس ٣ : ١-٢) ..

ونقل عن بطرس في نفس الاتجاه : «فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . إن كان للملك فكمن هو فوق الكلّ ، أو للولاة فكمرسلين عنه للانتقام من فاعلي الشر والمدح لفاعلي الخير ، لأن هكذا هي مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة للناس الأغبياء . كأحرار - وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر - بل كعبيد الله ! **أكرموا الجميع ، أحبوا الإخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك!**

أيها الخدّام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ، ليس للصالحين المترفّقين فقط - بل للعنفاء أيضاً ، لأن هذا فضل - إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزاناً متألّما بالظلم » (بطرس ٢ : ١٣-١٩) !!

ومن هنا استقر في العقل الغربي أخدود غائر يفصل السياسة عن الدين .. ولكن إلى أي حد تأتّى هذا الفصل في عالم الواقع ؟

إن علم الاجتماع الديني يؤكد : «إنّ الوظيفتين الدينية والسياسية كانتا ممتزجتين في بادئ الأمر ، فالملك كان الرئيس الديني قبل كل شيء .. ثم أمكن أن تنفصل الوظيفة الثانية بالتدريج عن الوظيفة الأولى . ولكن على الرغم من انفصال هاتين الوظيفتين إحداهما عن الأخرى ، فإنهما تظلان مرتبطتين مدة طويلة . ولم يكن الخلاف بين الأشراف والعامة خلافاً بين طبقتين اجتماعيتين فحسب ، بل كان بين ديانتين ! وقد مهّدت الثورة الفرنسية نفسها للتغيرات التي أحدثتها سنة ١٧٨٩م بإعلان (حقوق الإنسان) ، ذلك الإعلان الذي يرتبط مباشرة عن طريق التصريح

الأمريكي بالإصلاح البروتستنتي في القرن السادس عشر . وتؤدي المطالب الاشتراكية إلى طبع كثير من الاتجاهات الروحة المسيحية بطابع مدني . وفي مقابل ذلك تستعين السلطة السياسية بكل ما تنطوي عليه العواطف الدينية من قوة قاهرة حتى تُثَبِّتَ أقدامها .. وحتى إذا تمّ الانفصال نهائيًّا بين الدين والدولة ، فإنّ السلطة السياسية تحتفظ ردحاً طويلاً من الزمن ببقايا العصر الذي كانت فيه الملكية مرتبطة بالكهنوت ، فإن ملك فرنسا كان هو الذي في مقدوره أن يشفى الداء العياء - داء الخنازير ! ومن ناحية أخرى تحلم السلطان الدينية دائماً بالاستحواذ على السلطة السياسية ! وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية في الأصل سلطة روحية محضة ، ولكنها بدت عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية القوة الوحيدة التي مازالت باقية ، فاكتسبت سلطة سياسية لم تكن لها في أول الأمر . وقد حاول الملوك إخضاعها لسلطانهم ، ولكنّ البابوية كانت ترفع رأسها دائماً كلما ضعفت الملكية الزمنية وتحاول جهدها أن تصير سلطة زمنية .

ومع ذلك فالتفرقة بين الهيئات الكهنوتية وبين الدولة قانون مطرّد : لأنّ الديانات تصير عالمية فتتجاوز نطاق وطن بعينه ، ولأنّه قد توجد في نفس الوقت عدّة ديانات مختلفة في وطن واحد ... ومع هذا فهناك طغيان متبادل بين هاتين السلطتين عندما تكونان منفصلتين . وهنا يجب علينا أن نفحص ثلاث حالات :

أولاً : طغيان الكنيسة التي تطالب بنصيب في التشريع وبالحصانة من توقيع العقوبات ، والتي تكرّس الملوك وتخلق الأحزاب السياسية .

ثانياً : طغيان الدولة التي تحلّ الهيئات الدينية وتنص على عدم مشروعية نظام الرهبنة .

ثالثاً : ويوجد أخيراً طغيان غير شعوري ينجم عن هذا الأمر - وهو أنَّ نفس الأفراد ينتمون في آنٍ واحد إلى كلتا الناحيتين ، وأنَّهم يجدون مشقة كبيرة في

تقسيم نشاطهم إلى قسمين . وهكذا ارتضت الكنيسة الكاثوليكية القانون الروماني ، ولكن فيما بعد اتخذ المجتمع المدني القوانين الدينية مصدر روحي له »[1] .

والكنيسة في الغرب كثيراً ما تتدخَّل في شئون السياسة ، وهي ما برحت حتى اليوم ذات تأثير كبير - في بعض الدول على الأقل . وقد تولّى أسقف مسيحي أخيراً رئاسة السلطة الزمنية في قبرص دون أن يخلع رداء الكهنوت ، والاتجاه المسيحي يُلوِّن النزعة الاشتراكية عند بعض أحزاب ألمانيا وإنجلترا وبلجيكا الاشتراكية والديمقراطية ، ويبدو أثر الدين واضحاً في كتابات تشرشل وأتلى ، وأيزنهاور ودالاس .

ومن هنا يحق لنا أن نقول : إنّ كلمات رسل المسيح لا يمكن أن تنفصل عن العصر الذي كُتبت فيه ..

فليس من الحق أن تُحمل كلماتهم على أنها تؤبّد الطاعة لكل طغيان ! إذ لا ينسى أحد ثورات الحرية التي قامت بها شعوب الولايات المتحدة ، وفرنسا ، ثم روسيا ... وكلها شعوب مسيحية ! ولقد يقال إنّ فلاسفة الثورات لم يكونوا متديّنين ، غير أن الجماهير - التي كانت وقود الثورات - سوادها متديّنون ، كذلك لم يكن كل القادة في هذه الثورات من الملحدين !!

ومن المعقول أن يقال : إن كلمات بولس وبطرس صدرت من تلاميذ تأثّروا بدعوة المحبة المسيحية ، فرغبوا في السلام بقدر الإمكان ..

ومن المعقول أن يقال : إنّ دولة الرومان باتساع أرجائها ، وتسامحها الكبير إزاء اختلاف القوميات والطوائف والديانات في إمبراطوريتها العالمية ، وحرصها الدائم

---

[1] - باستيد: Roger Bastide : مبادئ علم الاجتماع الديني (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص١٩٧ - ٢٠٥.

على التفاخر بالسلام الروماني والعدل الروماني والقانون الروماني ... دولة كهذه قد أطمعت دعاة المسيحية أن يُزلقوا رسالتهم بين الناس دون ضجيج أو صدام سيّما وقد رأوا أنّ مطاردة المسيح كانت على أيدي كهنة اليهود لا ولاة الرومان!

ورسائل بولس وبطرس التي تجعل (السلاطين الكائنة هي مُرَتَّبةٌ من الله) - تصوِّرهم عادلين منصفين يمدحوا الأخيار ولا يُهدِّدُون غير الأشرار : (فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للشريرة) - كما يقول بولس ، وهم : (كمرسلين منه للانتقام من فاعلي الشر وللمدح لفاعلي الخير) - كما يقول بطرس !

لقد انتفع بولس نفسه من قواعد الإجراءات الرومانية مرات - كما تقدّم القول ..

ومن هنا اختارت الرسالة المسيحية أن تُحقّق التحوّل بوسائل تطوّرية محضة ...

وفعلاً استطاعت أخيراً أن تصل إلى قلب الإمبراطور قسطنطين نفسه في خاتمة المطاف ...

لكنها اجتازت في الطريق محن الاضطهاد - مما أذاع الرسالة وأشاعها أكثر فأكثر ، ومما كسب لها على مرّ الأيام مزيداً من الأنصار والأتباع .

ذلك أنّ الشعور العميق الغامر الذي يستثيره الدين ، لايمكن أن ينفصل عن الإنسان أو ينخلع عنه الإنسان - وهو يمارس شأنا من مختلف شئون الحياة!

وقد بدا تميّز المسيحيين عن سائر الرعايا في دولة الرومان ، وبدا التأثير الديني في مجرى حياتهم ومدى انقيادهم للدولة التي ينضوون تحت لوائها - فيما جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس : «أيتجاسر منكم أحدٌ له دعوى على آخر ، أن يُحاكم عند الظالمين وليس عند القديسين ؟؟ ألستم تعلمون أنّ القديسين سيدينون العالم ، فإن كان للعالم يُدان بكم - أفأنتم غير مستأهلين

للمحاكم الصغرى ؟ ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة ، فبالأولى أمور هذه الحياة ! فإن كان لكم محاكم في أمور هذه الحياة ، فأجلسوا المحتقرين في الكنيسة قضاة ! لتخجيلكم أقول : أهكذا ليس بينك حكيم ، ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته؟؟

لكن الأخ يحاكم الأخ - وذلك عند غير المؤمنين ! فالآن فيكم عيب مطلقاً ، لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض . لماذا لا تُظلمون بالحرىّ ؟ لماذا لاتُسلبون بالحرىّ ؟ لكن أنتم تظلمون وتسلبون - وذلك للإخوة ! أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله . لا تضلّوا : لا زُناة ، ولا عبدة أوثان ، ولا فاسقون ، ولا مأبونون ، ولا مضاجعو ذكور ، ولا سارقون ، ولا طماعون ، ولا سكّيرون ولا شتّامون ، ولا خاطفون - يرثون ملكوت الله. وهكذا كان أناس منكم - لكن اغتسلّم ، بل تقدّستم ، بل تبرّرتم باسم الرّب يسوع وبروح إلهنا » (كورنثوس ٦ : ١-١١) .

يقول الدكتور حتى : «وبما أنّ المسيحيين كانوا مُوحّدين ، فإنّهم لم يتمكّنوا من التساهل ، وكانوا نشيطين متحمسين في بحثهم عن أتباع جدد لديانتهم ، وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدنهم . ومثل هذا الموقف تجاه العادات الوثنية ، بالإضافة إلى جهدهم المستمر في كسب الأتباع - كان لابدّ أن يؤدي إلى الإصدام ! حصل أول اضطهاد عنيف في عهد نيرون - بمناسبة حدوث حريق عارض دمّر قلب مدينة روما سنة ٦٤م ، وفسّر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنّه حادث آخر من حوادث لهو إمبراطورهم الجنوني ! وعندما ارتاع نيرون من ذلك ، حاول أن يلقي التهمة على المسيحيين في العاصمة وأمر بإبادتهم جميعاً . ومع أنّ هذا الاضطهاد كان محليًّا ، فقد تلته حوادث متفرقة ضد المسيحية في الولايات . ويُعتقد أنه حُكِمَ على بولس بالموت في روما عام ٦٧م لكونه مسيحيًّا ، وذلك وفق القانون الذي أصدره نيرون . ويبدو أنّ بطرس استشهد بالصلب في روما حوالي هذا التاريخ الذي استشهد فيه بولس بالسيف ، وقتل كثيرون في نفس

الوقت . وقد أثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والأقاويل حولهم ، وكانوا بمثابة كبش الفداء كلما حلّ بالمدينة أو بالسكان حادث مشئوم ! .. وحدث الاضطهاد العنيف التالي عام ٩٥م في عهد دوميتيان ، وكان أيضاً محليًّا وموجهاً بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لايزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيين في كثير من الأحيان .. وفي عام ١١٢م أصدر تراجان مرسوماً ينصّ على أنّ المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللإمبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة يُعاقبون كخونة ! .. وكانوا يُلاحقون ويُعاقبون بشكل منتظم في مناسبات متعدّدة ... وفي عام ٢٥٠ - ٢٥١م أوجب ديكيوس من جديد معاقبة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لآلهة الدولة . وفي عام ٢٥٧ - ٢٥٨م لم يوجب فالريان على المسيحيين أن يُقدّموا الذبائح علنا فحسب ، بل منعهم من عقد اجتماعاتهم معاً ! وكان دقلديانوس هو الذي أمر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع ، وقد نصّ مرسومه عام ٣٠٣م على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه ، وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات - باستثناء الإعدام ، ولكن حتى الإعدام نفسه طُبِّقَ وعلى مقياس واسع ! وكان غريباً أن يصدر هذا المرسوم عن شخص كان يميل إلى المسيحيين علنا ، ويُظنّ أنّ زوجته وابنته كانتا مسيحيتين !! ويبدو أنّ الأمن والنجاح اللذين كانا يتمتّع بهما المسيحيون في البلاد كلها قد أثارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنيين ، الذين ملأوا رأس الإمبراطور بتقارير عن مؤامرات وأعمال شغب مزعومة . واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات لا يعدلها شيء ، واستخدمت عبقريات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب ...

وبعد سنوات قليلة ، أصبحت المسيحية في عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة !! . وكان اضطهاد دقلديانوس آخر اضطهاد في عهد الدولة الرومانية »[1] .

---

١ - حتى : تاريخ سوريا ج٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ٣٦٦ - ٣٦٨.

فهل يمكن بعد هذا أن يُقال إنّ المسيحية تترك جماعتها تتميّع تحت نير أي سلطة سياسية ؟؟

وهل يمكن أن يقال : إنّ المسيحية تحض على الاستسلام أبداً وعلى طول الخط؟؟

لو كان هذا صحيحاً لما سمحت المسيحية بأيّة مقاومة ، ولو كانت سلبية - على طريقة غاندي !!

ولو كان هذا صحيحاً لما وجدنا في كلمات بولس الرسول ربطاً صريحاً بين المسألة والطاقة والإمكان : «**إن كان ممكناً ، فحسبَ طاقتكم** سالموا جميع الناس».. (رومية ١٢ : ١٨)

وعندما أتيحت للمسيحية فرصة الإفادة من السلطان لم تتردّد ... في الدولة الرومانية الشرقية ، أو في الدول الأوربية في الغرب . ويصف بينز Norman Baynes : كيف تحوّل الحاكم الروماني إلى حاكم مدني يعتمد على الدين في تأييد نفوذه - حتى كان أباطرة بيزنطة جميعاً يزعمون لأنفسهم قداسة رجال الدين ! يقول : «وإذن فمن الجليّ أن الأوتوقراطية كهانة ملكية ، وما الإمبراطور إلا أحد رجال الدين ، حتى إذا قدّم ما تلزمه العادة بتقديمه - استطاع أن يدخل المعبد المقدس ويقترب من المذبح حيث لايسمح لأحد من العلمانيين بالمرور ! وفي مكنته أن يُقبّل ستار المذبح وأن يتناول بيده الخبز المقدس ، وعهدت له العناية الإلهية - كما عهدت لبطرس من قبل - في رعاية أتباع المسيح . ولكي يظهر هذا الجاب من كهانة الإمبراطور في وضوح أكثر ، أُضيف - منذ القرن التاسع على ما يظن - عمل آخر رمزي في حفل التتويج ، ألا وهو أن يقوم البطريق بمسح الإمبراطور بالزيت المقدس ، ولم يكن يعبّرون به عن إرادة الدولة بل عن المشيئة الإلهية »!!

وقد تحمّس الأباطرة البيزنطيون منذ قيام ليو الثالث - رأس الأسرة الإيسورية - سنة ٧١٧م لنزعة في الدين عرفت باللاصورية Iconclast ، كانت تعتبر تقديس الصور والأيقونات لوناً من عبادة الأصنام ! وقد سعى الأباطرة لفرض هذه الفكرة ومحاربة مخالفيها بكل سبيل : «واكتسبت معركة اللاصورية طابعاً سياسيًّا ، وقد رأى البعض أنّ الاضطهاد في هذه الفترة الأخيرة كان مقصوراً على القسطنطينية ، لأن الإمبراطور ربما سعى عن هذا السبيل لأن يكون سيد العاصمة ! ولم يكن الرهبان مجرد مُدافعين عن الصور ، يذودون عن تقليد كنسي فحسب ، بل كانوا **ثورين على طريقتهم الخاصة !!**

لقد كانوا **ينافحون عن حرية جديدة** ، ويجاهدون في سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة - تلك العلاقة التي توطّدت منذ زمن طويل في العالم البيزنطي ، **لأن إمبراطور روما الشرقية لم يكن حامي الدين فحسب ، بل كان رئيس الكنيسة ووريث قسطنطين الكبير!** وكان في مقدوره وحده أن يدعو المجمع الكنسي - برلمان الإمبراطور الديني - حيث كانت الإجراءات صورة من شبيهاتها في السناتو الدنيوي ، وحيث اتخذ الإنجيل مكان هيكل النصر الوثني ! وكان مندوبوه العلمانيون يرأسون اجتماعات المجمع ، وكانت قراراته التي تتخذ لا تفوز بالصيغة التنفيذية حتى يوافق الإمبراطور على جعلها سارية المفعول ... واستطاع الإمبراطور في الحقيقة أن يحدد عقائد الكنيسة بمنشورات إمبراطورية ، وكان الإمبراطور في الحقيقة يُعيّن أسقف البلاط الذي كان في مقدوره أن ينفذ إرادته في المسائل الدينية عن طريق عزل البطارقة العاصين . ولقد نادى رعايا جستنيان به ملكاً كاهناً ، وأوضح أسقفه النظرية القيصرية بقوله : يجب ألا يحدث شيء في الكنيسة ضد رغبة الإمبراطور ! وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هاجمها ثيودور - من رجال دير ستوديوس وأحد أنصار عبادة الصور المتأخرين ، فقد كان هؤلاء يمانعون في إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ويوضح القديس يوحنا

الدمشقي وجهة نظر هؤلاء الرهبان في قوله : (نحن نطيع الإمبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية - أي في الولاء والضريبة .. أما في الحكومة الكنسية ، فلنا القسيسون والمبرون بالكتاب وشارحو القوانين الكنسية . فالتقدّم السياسي من اختصاص الإمبراطور ، أما التنظيم الكنسي فهو من اختصاص القسيسين والمعلّمين ، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصية) !

ولكن عجز أنصار عبادة الصور عن تحقيق هدفهم هذا ، فقد ظلت النظرية سارية باختلاف واحد - وهو أنّ الأباطرة كفّوا عن السعي في تغيير العقيدة المسيحية عن طريق المنشورات الإمبراطورية ، لأنّ الكنيسة حين خرجت من النزاع حول اللاصورية أصبحت كنيسة أرثذوكسية بصورة أوفى ، وتوقف تطورها اللاهوتي »[1] .

وعلى هذا النحو جرى الصراع بين البابوية وبين بعض رءوس السلطان الزمنية في أوربا .. وكان الفصل الظاهري الرسمي لسلطتي الدين والسياسة ، يحمل معه أسّ النزاع حول سيادة أيهما على الأخرى !!

وعلى ذلك يمكن القول أن المسيحية لم تتخل عن واقعيتها وموافقاتها لدنيا الناس ، وقيامها باحتياجاتهم المختلفة ، مع السموّ بمداركهم وموازينهم وآفاقهم وسلوكهم - بقدر ما يتّسع له التطور الإنساني نحو الكمال على تتابع الأجيال ، وما تنفسخ له الطاقة البشرية في مختلف المجالات .

ومن الكتّاب المسيحيين من يحاول أن يلقي على بعض المشكلات السياسية والاجتماعية التي تتبارى في حلّها مختلف المذاهب والنظم ، ضوءاً مستمدًّا من دراسة الكتب المقدسة ، وما ورد فيها من نبوءات ، وإن كان المسيح قد انصرف عن معالجة التشريع بطريق مباشر !

---

١ - بينز : الإمبراطورية البيزنطية - ترجمة مؤنس وزايد - ص ٨١ ، ١١٧ - ١١٩ .

«فقد خرج الأدفنتست Adventist السبتيون - مثلاً - ليعلنوا على مسامع العالم أنّ المستقبل سيتمخّض عن **حروب وانقسامات** متناهية في الشدة والقسوة ، مما لم يستسغه العقل في السنوات السابقة لعام ١٩١٤م - في فترة ساد فيها الشعور بالرضا والتفاؤل ..

ومما تنبّأ بحدوثه المجيئيون السبتيون في الأيام الأخيرة **مسألة السلم العالمية** . فقد قالوا : إنّه في الأيام الأخيرة ستظهر مشروعات عظيمة تهدف إلى سيادة السلام على العالم - وهنا تبرز لنا مناقضة من مناقضات النبوّات الكتابية التي يتحيّر فيها أكثر الناس تعبّداً وتدّيناً . ولكن هذه السنوات الأخيرة قد شاهدت فعلاً الجمع بين النقيضين فيما يتعلّق بتشريعات السلم وتشريعات الحرب ...

وتنبّأ الأدفنتست السبتيون عن المشكلة الخاصة **بالرأسمالية والعمال** ، لأنّه من دراساتنا للنبوات صرنا نعتقد أنه قبل مجيء المسيح ستظهر مشاكل خاصة بتكدّس الثروات في أيدي القلائل والتفاوت العظيم بين الطبقات ، مما جعلنا نخلص بهذه النتيجة المتعلّقة بشدة التوتّر وزيادة المتاعب التي ستنشأ بين الرأسمالية والعمال. وكانت هناك بعض الدلائل التي تعزّز وجهة نظرنا ، ولكن الناس وقتذاك - تحت تأثير الشعور العام بالتفاؤل - اعتقدوا أنّ تلك المتاعب التي كانت قد أخذت في الظهور بين العامل وصاحب العمل إنما هي متاعب مؤقّتة ناشئة عن فترة الانتقال ، وأنّه سيأتي الوقت الذي تنتهي فيه الأمور إلى حالة الاستقرار والتآلف والانسجام ، فيتمتّع العالم بالرفاهية الاقتصادية ..

كذلك تنبّأ الأدفنتست عند فجر نهضتهم بأنّ الشر سيطغى ، **والإباحية** ستزداد ، فقيل عنا إننا كمن يندب في وسط معالم الأفراح ! لأنّ الفكرة عن إمكانيات التقدّم الإنساني كانت مسيطرة على ذلك العصر ، إذ خلط الناس وقت ذلك بين فكرة التقدّم المادي والتقدّم الأدبي ...

وأخيراً : منذ ظهور نهضة الأدفنتست في منتصف القرن التاسع عشر ، وهم يتنبّأون بأنّه في آخر الأيام **سينبذ العالم المبادئ الأساسية للحرية** ! ولم تُقابل أيّة نبوءة من نبوءاتنا بمثل ما قوبلت به هذه النبوءة من الاحتقار والازدراء!! ... »[1].

أرادت المسيحية إذن أن تمضي في طريقها بسلام ، تسرق من القلوب الانقياد للهيكل دون أن تمسّ الهيكل ، وتخطف منها الولاء للقيصر دون أن تبارز القيصر بعداء ..

وهكذا يستحيل الهيكل حجارة بغير عُبّاد أو قُصّاد ، وتستحيل الإمبراطورية - (بيضة فارغة) كما يقولون !!

وأراد الكهان أن يتداركوا مصيرهم بمؤامرة قيافا ، كما أرادت الدولة أن تستنقذ كيانها بمذابح نيرون ... ولكن ذهب قيافا ونيرون مع من ذهب ، وبقيت المسيحية وخلد المسيح !!

وتنصرت الدولة الرومانية في بيزنطة ، كما تسلّم شرلمان تاج الإمبراطورية المقدّسة من يد البابا ، ولم يفلت من دعوة المحبة حتى (الشعوب المتبربرة) في عرف الرومان - وهي التي كانت ترابط على الحدود ، ثم توغّلت داخل الحدود ، ثم راحت تتقاسم غرب الإمبراطورية قطعاً وأشلاء ..

وعلى هذا المنوال تمضي شرائع الله مع موكب التاريخ :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

---

١ - فرانسيس دانيكول : إيماني ، حججه وأسانيده - ترجمة جرجس سليمان - ص ٣٠ - ٣٩.

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ
بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾
وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ
ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ
﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٨].